وقعة الجمل

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ،
إِنْ تُسْمِعْ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُون » .

« قرآن كريم »

١

انتصر الإمامُ عليٌّ فى موقعةِ صِفّين ، وقُتِلَ طلحةُ والزُّبَيْر ، وعادتْ عائشةُ إلى المدينةِ مُعزَّزةً مُكرَّمَة ، وبايعَ النّاسُ عَليّا ، فاجتمعَ له بَيْعَةُ أهلِ الحرَمين، وأهلِ العراق ، وأهلِ الحجاز ، وأهلِ اليَمَن ، وأهلِ مصر ، ولم يبقَ إلاّ أهلُ الشّام ، فأرسلَ إلى مُعاوية ، الذى كان واليًا على الشّامِ من قِبَلِ عُثمانَ بنِ عفّان ، كتابًا جاء فيه :

« بسم اللهِ الرّحمنِ الرّحيم .

فإنّ بيْعتى بالمَدينةِ لزمتْكَ وأنتَ بالشّام ، لأنّه بايعنى القومُ الّذين بايعوا أبا بكرٍ وعمرَ وعثمان ، على ما بايعوا عليه » .

وطلب منه أنْ يَدخلَ فيما دخلَ فيه المسلمون ، وإلاّ قاتله حتّى لا تتفرّقَ كلمةُ المسلمين .

كان معاويةُ يطمع فى الخلافة ، فرأى أن يستعينَ بذوى الرَّأى فى مناوأةِ علىّ ، فأرسلَ إلى عمرِو بنِ العاص ، فلمّا جاء إليه ، طلب منه أن ينضمَّ إليه فى مناوأةِ علىّ ، فطلب عمرٌو منه أن يجعلَه واليًا على مِصر ، فقبلَ معاويةُ ذلك . فانضمَّ عمرٌو إليه ، وأخذا يَعملان على تأليبِ أهلِ الشَّامِ على أميرِ المؤمنين .

أشارَ عمرٌو على معاويةَ أن يُقنِع شُرَحبيل ، رأسَ أهلِ الشّام ، أنَّ عليًّا قتلَ عثمان ، فأرسلَ معاويةُ إلى شُرَحْبيلَ رجالاً يُخبرونَه أنَّ عليًّا قتلَ عثمانَ بنَ عفّان ، فغضِبَ شُرَحبيل ، وثارتْ نفسُه ، وتيقَّن أنَّ الإمامَ قتلَ عثمان ، دون أن يفطُنَ إلى أنَّ مُعاويةَ هو الذى دسَّ

هؤلاءِ الرِّجال ، ليقولوا له ذلك ، فرجع شُرَحْبيلُ إلى معاوية ، وقال له فى انفِعال :

— يا معاوِية ، أَبَى النَّاسُ إلّا أنَّ عليًّا قتلَ عثمان ، ووالله لئنْ بايعتَ له لنُخرجنَّكَ من الشَّام أو لنقتلنَّك .

فقال معاوية :

— ما كنتُ لأخالِفَ عليكم ، وما أنا إلا رجلٌ من أهلِ الشَّام .

وراح شُرَحْبيلُ يسيرُ فى مدائنِ الشّام ، ويُنادى فى النّاس ، بأنَّ عليًّا قتل عثمان ، وأنه يجبُ على المُسلمينَ أن يطلُبوا بدمِه ، وكان يقومُ خطيبًا فيقول :

— يأيُّها النَّاس ، إنَّ عليًّا قتل عثمانَ بنَ عفّان ، وقد غضِب له قومٌ فقتلَهم ، وهزمَ الجميع ، وغلب على الأرض ، فلم يبقَ إلاّ الشَّام ، وهو واضعٌ سيفَه على

عاتقه (على كتِفِهِ) ثم خائضٌ به غِمارَ الموت ، حتّى يأتِيَكم ، أو يُحدثَ اللهُ أمرا ، ولا نجدُ أحدًا أقوَى على قتالِه من معاوية ، فجِدُّوا وانهَضُوا .

وتأهَّب أهلُ الشَّامِ لقتالِ عليٍّ أميرِ المؤمنين ، ولم يدُرْ برأسِ أحدِهم أنّ معاويةَ هو الذى حرَّكهم لقتالِ الإمام ، ليُثبِّتَ ملكه على الشَّام ، وقرَّتْ عينُ معاويةَ لمّا وجدَ جيوشَ الشَّامِ رَهنَ إشارتِه .

٢

بلغ معاوِيَةَ أنَّ عليًّا سارَ بأهلِ العراق ، ونزل بالنُّخيلَة ، وعسكرَ بها ، فذهب إلى المسجِد ، وصعِدَ إلى المِنبر ، وكان قد ألبسَه قميصَ عثمانَ وهو مخضَّبٌ بالدَّم ، فوجد حولَه الشُّيوخَ يبكون ، لا تَجِفُّ دموعُهم على عثمان ، فصعِد المِنبر ، فقال :

— يأهلَ الشّام ، قد كنتُم تُكذِّبونني فى علىّ ، وقد استبانَ لكم أمرُه ، واللهِ ما قتل خليفتَكم غيرُه ، وهو أمرَ بقتله ، وألَّبَ النّاسَ عليه ، وآوى قَتَلتَه ، وهم جندُه وأنصارُه وأعوانُه ، وقد خرج بهم قاصدًا بلادَكم وديارَكم لإبادتِكم ؛ يأهلَ الشّام ؛ اللهَ اللهَ فى عثمان ، فأنا ولىُّ عثمان ، وأحقُّ من طلب بدمِه ، وقد جعلَ اللهُ لولىِّ المظلومِ سلطانا ، فانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع به القومُ ما تعلمون ، قتلوه ظُلمًا وبَغْيا ، وقد أمرَ اللهُ بقتالِ الفئةِ الباغية ، حتى تفىءَ إلى أمرِ الله .

وسارَ الإمامُ فى خمسينَ ومائةِ ألفٍ من أهلِ العراق ، وسار معاويةُ فى نحوٍ من ذلك من أهلِ الشّام ، وسبق معاويةُ عليًّا إلى صِفّين ، فنزل أهلُ الشامِ منزلاً اختاروه ، بحيث كان الماء فى أيديهم ، وقد قرَّ رأيُهم على أنْ يمنعوا أهلَ العراقِ الماء .

وبلغَ الإمامُ عليٌّ صِفّين ، ونزل بالقربِ من جيوشِ الشّام ، وأرادَ رجالُه أن يشرَبوا ، فمنعهم أهلُ الشّام ، فذهبوا إلى الإمام ، وأخبروه بذلك ، فأرسلَ الإمامُ إلى معاوية رسولاً يقول له : خلِّ بين النّاسِ وبينَ الماء .

فقام معاويةُ فى جيشه ، فقال :

— يأهلَ الشّام ، هذا واللهِ أوّلُ الظّفَر (النصر) ، لا سقانى اللهُ ولا سقَى أبا سفيان ، إن شربوا منه أبدا حتى يُقتَلوا بأجمعِهم عليه .

فقال رجلٌ من أنصارِ الإمامِ له :

— يا أميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القومُ ماءَ الفُراتِ وأنتَ فينا ومعنا السُّيوف ؟

وهجم أهلُ العراقِ على أهلِ الشّام ، فأزالوهم عن الماء ، وأصبحَ الماءُ فى أيدى أهلِ العراق ، فقالوا :

— والله لا نَسْقيهم .

وبلغ ذلك الإمام ، فأرسل إلى رجالِه يقول :

— خُذوا من الماءِ حاجتَكم ، وارجِعوا إلى عسكرِكم ، وخلُّوا بينَهم وبينَ الماء ، فإنَّ اللهَ قد نصركم ببغيِهم وظلمِهم .

منع معاويةُ عليًّا الماءَ لمّا كان الماء فى يده ، ولكنَّ عليًّا الرَّجلَ الكريم ، قد خلَّى بين أعدائِه وبين الماء ، لمّا أصبح الماءُ فى يدِه ؛ فما جاء عليٌّ إلى الشّامِ ليقتُلَ النّاس ، بل جاء وهو يُريد أن يجمعَ المسلمينَ على إمامٍ واحد ، حتَّى لا تتفرَّقَ كلمتُهم ويدِبَّ الضَّعفُ فيهم .

٣

أشفق الجميعُ من الحرب ، وخرج قُرّاءُ أهلِ العراق ، وقُرّاءُ أهلِ الشّام ، وعسكروا ناحيةَ صِفّين ،

وذهب قرّاءُ أهلِ العِراقِ إلى معاوية ، فلمّا دخلوا عليه قالوا له :

— يا معاوية ما الذى تطلُب ؟

— أطلبُ بدمِ عثمان .

— ممَّن تطلبُ بدمِ عثمان ؟

— من علىّ .

— وعلىٌّ عليه السلامُ قتلَه ؟

— نعم ، هو قتلَه وآوَى قاتليه .

وانصرفوا من عِنده ، فدخلوا على علىّ ، فقالوا :

— إنَّ معاويةَ يزعُم أنَّك قتلتَ عثمان .

— اللّٰهمَّ يكذبُ فيما قال . لم أقتلْه .

واستمرَّت السِّفاراتُ ثلاثةَ أشهر ، واستمرَّ الإمامُ يجادلُ رسُلَ معاوية ، ليُقنعَهم أنَّه لم يأمرْ بقتلِ عثمان ،

ويدعوهم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلّ ، ولكنَّ رسُلَ معاويةَ لم يقتنعوا ، وخرجوا من عندِه وقد عزمو على الحرب ، فقال الإمام :

— « إنَّك لا تُسمعُ الموتَى ، ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا ولَّوا مدْبرين ، وما أَنتَ بهادى العُمْىِ عن ضلالتِهم ، إن تُسْمِعْ إلاّ من يؤمنُ بآياتِنا فهم مُسلمون » .

٤

تَأهَّب الجيشانِ للقتال ، ثم اختلطَ الرِّجال ، ونشِبتِ الحرب ، وسقط الرِّجال قتلَى ، فقام الإمامُ بين الصَّفين ثم نادى :

— يا معاوية ! يا معاوية !

فقال معاوية :

— اسألُوهُ ما شأنُه ؟

فقال علىّ :

— أُحِبُّ أن يظهرَ لى ، فأُكلِّمَه كلمةً واحدة .

فخرج بين الصَّفين معاويةُ ومعه عمرُو بنُ العاص ، فلمّا قاربا الإمام ، لم يلتفتْ إلى عَمرْو ، وقال لمعاوية :

— ويحَك ! علامَ يقتتلُ النّاسُ بينى وبينَك ، ويضرِبُ بعضُهم بعضا ؟ ابرُز إلىّ فأيُّنا قتل صاحبَه فالأمرُ له .

فالتفتَ معاويةُ إلى عَمرِو بنِ العاص ، فقال :

— ما ترى يا أبا عبدِالله ، أُبارزُه ؟

فقال عمرٌو فى دَهَاء :

— لقد أنصفكَ الرَّجُل .

فقال معاويةُ لعمْرو :

— يا عمَرَو بنَ العاص ، ليس مثلى يُخدَعُ عن

نفسِه ، والله ما بارز ابنُ أبى طالبٍ رجلاً قطّ إلا سقَى الأرضَ بدمِه .

خاف معاويةُ أن يُبارزَ عليّا ، فانصرف راجعا دونَ أن يتكلّم ، وظلّ يخترقُ صفوفَ جيشِه وهو خائف ، حتى انتهى إلى آخرِ الصُّفوف وعمرٌو معه ، فلما رأى عليٌّ عليه السّلام ذلك ، ضحِك وعاد إلى موقِعه .

وزحف الناس بعضُهم إلى بعض ، فارتَموا بالنَّبل والحِجارة ، ثم تطاعنوا بالرِّماح حتى تكسَّرت ، ثم مشى الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ بالسَّيف وعَمَدِ الحديد ، فلم يسمع السَّامعُ إلا وقعَ الحديدِ بعضِه على بعض ، وراح الإمام يغوصُ فى صفوف الشَّام ، يضرِبُ بسيفِه ، ثم يخرجُ به منحنيا ، وفطنَ معاويةُ أنّ عليًّا سينتصرُ عليه إذا استمرَّ القتال ، فالتفتَ إلى عمرِو بن العاص ، وقال :

— ما ترى؟

فقال له عمرو :

— إنَّ رجالَك لا يقومون لرجالِه ، ولستَ مثلَه ، هو يقاتلُ على أمر ، وأنت تقاتلُ على غيرِه ؛ أنت تريدُ البقاءَ وهو يريدُ الفناء ، وأهلُ العراقِ يخافونَ منك إن ظفِرتَ بهم ، وأهلُ الشّامِ لا يخافونَ عليًّا إنْ ظفِر بهم ، (لأنَّ عليًّا رجلٌ كريمٌ فلن يعذِّبَهم) ، ولكن ألقِ إليهم أمرًا إن قبِلوه اختلفوا ، وإن ردّوه اختلفوا ، أُدعُهم إلى كتابِ الله حَكَمًا فيما بينك وبينهم .

وربط معاويةُ وأهلُ الشّامِ المصاحفَ على أطرافِ الرِّماح ، ورفعوها ، فنظر عليٌّ وأهلُ العراق ، فإذا بالمصاحفِ مرفوعة ، ثم قامَ رجالٌ من أهلِ الشّامِ ونادَوا :

— يا معشرَ العرب ، اللهَ اللهَ فى نسائِكم وبناتِكم ، فمن للرُّوم والأتراكِ وأهلِ فارسَ غدًا إذا فنيتُم ؟ اللهَ اللهَ فى دينكم . هذا كتابُ اللهِ بيننا وبينكم .

فقال علىّ :

— اللّهمَّ إنك تعلمُ أنَّهم ما الكتابَ يريدون ، فاحكُم بيننَا وبينهم ، إنَّك أنت الحكيمُ الحقُّ المبين .

لم يشأْ علىٌّ أن يُخدَعَ بخُدعةِ ابنِ العاص ، أراد أن يُقاتلَ معاوية ، حتَّى يتمَّ له النصر ، ولكن جاءه زُهاء عشرينَ ألفاً من أهلِ العراق ، مقنَّعينَ فى الحديد ، شاكى السِّلاح ، سيوفُهم على عواتقِهم ، فقالوا له :

— يا علىّ ، أجبِ القومَ إلى كتابِ اللهِ إذا دُعيتَ إليه ، وإلا قتلناكَ كما قتلنا ابنَ عفَّان ، فواللهِ لنفعلنَّها إنْ لم تُجبْهم .

وصاحَ صائحٌ ممَّن كانوا يرونَ استمرارَ القتال ، حتى يتمَّ النَّصرُ لعليٍّ وأهلِ العراق :

— خُدِعتُم واللهِ فانخدعتُم ، ما أنتُم برائينَ بعدها عِزًّا أبدا .

فسَبُّوه وسَبَّهم ، فصاح بهم عليٌّ فكفّوا ، ثم تصايح الراغبونَ فى التحكيم :

— إنَّ عليًّا أميرَ المؤمنينَ قد رَضِيَ بحُكمِ القرآن .

واضطُرَّ الإمامُ بعد أن اختلفَ أنصارُه أن يقبلَ التحكيم ، ونجحت خُدعةُ عمرِو بنِ العاص .

القصص الديني

الجزء الثالث

الخلفاء الراشدون

١ — أبو بكر خليفة الرسول
٢ — أبو بكر يقاتل مانعي الزكاة
٣ — أبو بكر وخالد بن الوليد
٤ — وفاة أبي بكر الصديق
٥ — عمر أمير المؤمنين
٦ — فتح دمشق
٧ — عمر وسعد بن أبي وقاص
٨ — عمر في بيت المقدس
٩ — فتح مصر
١٠ — عمر والرعية
١١ — وفاة عمر
١٢ — عثمان بن عفان
١٣ — فتح أفريقية
١٤ — عثمان وثورة الأمصار
١٥ — مقتل عثمان
١٦ — الإمام علي بن أبي طالب
١٧ — وقعة الجمل
١٨ — وقعة صفين
١٩ — التحكيم
٢٠ — مقتل الإمام

دار مصر للطباعة
ثمن القصة ٣٥ مليما